«ولادة الصهيونية السياسية نقطة تبلور في تاريخ الصهيونية»[٤]. الّا انه توقف عند حدود هذه الملاحظة الاخيرة، بدون ان يقارب الأرضية الثقافية التي أرهصت بولادة الصهيونية السياسية، أو بدون ان يتعامل مع الخطاب الأدبي، بوصفه حامل الرؤيا، بل بوصفه أداة من الأدوات التي وظّفتها الصهيونية في معركتها. وهذا يعني ان الصلة بين ما هو ثقافي ـ أدبي وما هو سياسي في اطار الرؤيا اليهودية هو صلة مفتعلة وغير أصيلة. وكأن من الممكن ان تكون الرؤيا اليهودية شيئاً مختلفاً، لولا ولادة الصهيونية السياسية. لقد أكّد هذا المنحى في التحليل باشاراته الى «الطبيعة الدينية لآداب اللغة العبرية»، موحياً بأنها تتنافى مع الصهيونية السياسية[٥].

ثمّة دراسة أخرى للدكتور هاني الراهب، بعنوان «الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية»، تناولت بالبحث الروايات الانكليزية الصادرة منذ العام ١٨١٧. الّا ان هذه الدراسة، بدورها، لم تجب عن أي نوع من هذه الأسئلة. فهي لم تكن مخصّصة الّا «لاستقصاء، وتعليل، صهيونية بعض الروايات الانكليزية»[٦]. واكتفت باستقصاء الحقل ذاته الذي شقّه كنفاني. الّا ان ثمّة اشارتين الى القضية التي نطرحها: الأولى أوردها د. الراهب في سياق الحديث عمّا سمّاه اليهودية الجديدة في مقاطعة نيوانغلاند الاميركية، حين لاحظ تركيز البروتستانت على درس العهد القديم، واعتباره أكثر دلالة على المسيحية من الاناجيل ذاتها[٧]. ولكنه ضيّع دلالة هذا التركيز حين أدرجها في سياق أدلّته على «الاندماج اليهودي في المجتمعات الغربية»[٨]، ولم يستنتج العكس، وهو دلالة اندماج الانجيليين في اليهودية، وهو الأقرب الى المنطق، وبخاصة اذا ما عرفنا ان الأنشطة البارزة للانجيليين الاميركيين هي في تأكيد ان اسرائيل والقدس كلاهما ركيزة لاهوتية للانجيليين مثلما هي لليهود. وان اعتقادهم بقداسة التوراة يماثل اعتقادهم بأن أمن اسرائيل حيوي لانجاز النبوءات التوراتية، بعودة «المخلّص».

الاشارة الثانية للدكتور الراهب وردت في سياق مناقشة روايات ياعيل دايان. وهنا، أيضاً، لم يستطع وضع يده على دلالة الأهمية الكبيرة التي تعلّقها دايان على شخص الصهيوني الأممي «ليني» غير اليهودي، الذي تصفه بأنه رجل الحجارة في توليد الحياة الجديدة على ما تسميها «أرض ـ اسرائيل». فقد اعتبر هذا التعليق دليلاً على احساس دايان بفشل الصهيونية. انها، كما قال، «تسبر غور الشخصية الاسرائيلية على نحو تراجعي»[٩]. وهي ترى في الصابرا ضعفاً في أبعاده الانسانية يصل به الى درجة الموت الروحي والأخلاقي»[١٠]. وأخيراً، وصف رواية ياعيل دايان «غبار» بهذه الكلمات: «الحركة الدائرية من غبار الى غبار تعني ان ' ياردينا ' كانت، طيلة الوقت، ميتة روحياً، وان بناء المدينة الجديدة الذي يرمز للصهيونية واسرائيل كان باطل الأباطيل»[١١]؛ في حين ان دلالة الامر عكس ذلك تماماً، حتى على صعيد اختيار الكاتبة لأسماء أبطال روايتها. فاسم «ياردينا»، مثلاً، مشتق من «يردن»، أي الاردن بالعربية، و«يردنة» أي الماء في الآرامية، وهو أصل الكلمة. أمّا الأممي ليني، فان دايان تُجسّد فيه رؤياها للمصير اليهودي، وقد أصبح مصيراً عاماً للبشرية منذ العصر الحجري، أي مصيراً يتعلّق بتحقيقه مصير الأمميين أيضاً. ان غبار روايتها ليس غبار الحطام، بل هو الضباب الأول الذي يبدأ منه خلق الوجود، كما تقتضي ذلك أصول الخلق التوراتية.

فيما عدا هاتين الاشارتين وبهذه النوعية سينقطع الاستقصاء ولا يتواصل الّا في مجال بحث آخر، هو بحث الصهيونية كظاهرة اجتماعية ـ سياسية، وهو ما فعله د. عبد الوهاب المسيري في كتابه «نهاية التاريخ». وهو دراسة في تطوّر بنية الفكر اليهودي على أساس تاريخي ولاهوتي معاً. وفي نطاق هذه الدراسة ثمّة تعليل لقضايا «الارض الموعودة» واقامة «الفردوس الأرضي» بحركة